

تجربة الإصلاح في فكر الحاج عمر بن سعيد الفوتي في بلاد السودان الغربي

د. ابن عمر عمر عبيد الله (١)

مستخلص البحث

تحاول هذه الورقة إعطاء فكرة عن تجربة الإصلاح عند الحاج عمر بن سعيد الفوتي في بلاد السودان الغربي في القرن التاسع عشر وكيف أنه نهل من حياض التعليم الإسلامي الأصيل وتوفر على حفظ القرآن الكريم في بلده فوت ، ثم ارتحل للبلدان المجاورة للتفقه في الدين والدخول في البرنامج الروحي ، وأردف ذلك برحلته المشرقية للحرمين والشام والمقدس مروراً بمصر والأزهر الشريف مما جعل من فكرة الخلافة والإصلاح الاجتماعي والسياسي ترتبط بفكره وعمله منذ ذلك الحين أولاً عن طريق التربية والتعليم والهجرة وثانياً الجهاد والمؤلفات مما مكنه من نشر الإسلام والطريقة التجانية في أجزاء واسعة من بلاد السودان الغربي وجعل لحركته بعداً إقليمياً ناجحاً إلا أنها أقل قدرة على الإحاطة بمشكلات الامتداد الجغرافي والاجتماعي والسياسي في بلاد السودان الغربي

Abstract

The paper tries to give an idea about the reforming experience of Al-Haj Omer Bin Saeed Al-Fotti

At Western Sudan (Bilad Assudan Al-Gharbi) , at the ١٩th. Century and how he absorbed from the original Islamic education and he memorized by heart the Holy Quran at his country Fott ,then he migrated to the neighboring countries for the religious jurisprudence and entered in a spiritual program ,he migrated also to the east to the two holy mosques and

^١ قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة كردفان

Asham and Al-Magdis passing through Egypt and al-Azhar Ashareef ,that tour made the thought of Al-Khilafah and the social ,political reformation linked to his thoughts and his deeds ; from that time ,firstly, through education and immigration ,secondly , by his publications that enabled him in disseminating the Islam and the Tijaniaha “Tarigha” in wide areas of Western Sudan (Bilad Assudan Al-Gharbi) ; he gave his movement a successful regional dimension but it could not encircled all geographical , political and economical problems at the areas of Western Sudan (Bilad Assudan Al-Gharbi).

تتدرج الحركة الجهادية للحاج عمر الفوتي (١٧٩٧ - ١٨٦٤م) في سياق الظرفية الاستعمارية الشرسة لمنتصف القرن ١٩م والتي كانت لها أثر عميق في استفار الأهالي وتحديد الكثير من توجهات الزعماء المحليين (١).

وتعد حركة الحاج عمر إحدى ثلاث حركات جهادية قامت بدور كبير في تنوير مجتمعات غرب إفريقيا إسلاميا مكنتها من إقامة أنظمة إسلامية تعتمد على تطبيق الشريعة الإسلامية نسا وروحا بالإضافة لحركة الشيخ عثمان بن فودي وحركة الشيخ أحمد بن سعيد الماسني في بلاد ماسينا (في جمهورية مالي حاليا) (٢).

النشأة والميلاد :

ولد الحاج عمر الفوتي ١٧٩٨م في قرية حلوار الواقعة على الضفة الغربية من نهر السنغال من أعمال مدينة بدور الواقعة في إقليم سنلوبيس . ونشأ في بيئة دينية علمية مرموقة في بلد عرف الحكم الشرعي للدين الإسلامي بما يزيد على قرن من الزمان باعتبار أن الدولة الإسلامية في فوتاتور قد قامت في نهاية القرن السادس عشر وكان شيوخ هذه الدولة التي أقامها نقباء أبناء فوتا بزعامة الشيخ سليمان بال الذي لم يتول الإمامة كان يدعون بالأئمة (٣).

البدايات التربوية والروحية :

ونشأ عمر بن سعيد الفوتي في وسط علم ودين وتميز بذكائه منذ صغر سنه وحفظ القرآن الكريم ولم تتجاوز سنه الثالثة عشرة كما درس اللغة العربية والتوحيد والفقاه

في بلده فوت^(٤). وكان شيخه الذي حفظ على يديه القرآن هو الشيخ (انگران حمات) وبعد ذلك التحق بمحضر أخيه الأكبر الفا أحمد لدراسة التجويد وبعد إتقانه لهذا الفن انتقل إلى قرية (اندرويس) عند الشيخ (لمين بصمور ساخ) لتعليم العلوم الفقهية والآداب وغير ذلك من العلوم ومن (اندرويس) توجه إلى (سنوبال) عند الشيخ (أحمد حلمية) لمواصلة تعليمه هناك ، وهناك روايات تقول إنه سافر إلى (بر) التي كانت من أهم المراكز التعليمية آنذاك لكن الروايات غير مؤكدة من قبل أسرته. ولم يكتف الحاج عمر بهؤلاء الشيوخ بل دفعه طموحه العالي إلى التوجه عند الشيخ عبدالكريم بن احمد الناقلي وهو من علماء فوتا جالون إتقى في قرية (دوي) Doye قرب بودر وكان هذا الشيخ عائدا في موريتانيا من عند السيد مولود فال الشنقيطي^(٥).

وقد لازم الشيخ عبد الكريم بن أحمد الناقل مدة من الزمن ولقنه الطريقة التجانية وأذن له في أورادها اللازمة والحزب وبعد عودته من فوتا لقي شيخه سيدي مولود فال فلأزمه فترة من الزمن ثم سافر بعد ذلك للحج سنة ١٨٢٠م^(٦).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعلومات المتعلقة بفترة طفولة الشيخ عمر الفوتي وشبابه شحيحة لا تسمح بمعرفة الشيء الكثير عنه في هذه المرحلة من عمره كما ذكر ذلك أكثر من باحث ولذلك فإن أغلب ما أفادت به بعض المصادر من معلومات بخصوص دراسته ببلاد شنقيط يستند على الاستنتاج باستثناء (فيرو كادن) و(ماد ينالي طال) اللذين اعتمدا على بعض الروايات الشفوية^(٧). ويستفاد مما أورده الباحثة المالية (مادينا لي طال) أن عمر بن سعيد أقام بموريتانيا للدراسة والتحصيل مرتين على الأقل لكن دون إشارة إلى الأساتذة الذين أخذ عنهم ولا إلي نوعية العلوم التي استكمل فيها خبرته خلال هذه الإقامة مكتفيا بالقول انه مكث مدة بموريتانيا إلى جانب شيوخ تاكانت (Tagant) حيث قامت منذ مدة قصيرة زاوية تجانية فتيية وانه بعد عودته من هذه الرحلة عاد فقيهاً متمكناً من الشريعة وعلم الكلام مع الإشارة إلى أن الباحثة لم تحل إلى المصدر الذي اعتمدت عليه في تقديم هذه المعلومات^(٨).

أما رحلة عمر بن سعيد الفوتي الثانية إلى موريتانيا من أجل الدراسة فقد اعتمد في إيرادها على رواية شفهية مصدرها شخص يدعى عمر باه وهي الرحلة التي سيلتقي خلالها لأول مرة مع أستاذه وشيخه في الطريقة التجانية عبد الكريم الناقل في بلده (نكالي) قرب بودور على الضفة الموريتانية بنهر السنغال عندما كان هذا الأخير في طريق عودته من عند شيخه مولد فال الذي كلف الناقل بإعطاء الورد لعمر بناءً على طلب هذا الأخير على ما يبدو خلال رحلته الأولى إلى بلاد شنقيط^(٩).

من جهة أخرى وبناء على شهادة (هزي كادن) الميدانية في بلاد شنقيط وسينغامبيا المعتمدة في دراسة (مادينالي طال)، يستفاد أن عبد الكريم الناقل كان يتجشم عناء الغربة والتنقل من بلاد فوتا جالون (غينيا) إلى موريتانيا للدراسة والتبحر في مختلف العلوم الإسلامية الأمر الذي جعله يعرف ويشتهر في بلاد شنقيط أكثر من بلاده^(١٠).

وهناك عدة أسباب ترجح ما ذهبنا إليه الأستاذة (مادينالي طال) على هذا النحو:-

يتعلق الأول بكون هذه الباحثة تنتمي للمنطقة والتربة التي أنجبت الحاج عمر مما يمكنها من معرفة لهجات شعوب المنطقة وتمكنها من الاطلاع على مختلف المتاحف ودور الأرشيفات وورش الحفريات في عين المكان وكلها أدوات لا يستهان بها وخاصة الرواية الشفهية التي استغلتها أحسن استغلال^(١١).

أما السبب الثاني فهو قرب فوتا موطن الحاج عمر من موريتانيا بحيث لا يفصل البلدين سوى نهر السنغال مما أتاح وجود جالية كبيرة من الطرفين استوطنت هذا البلد أو ذاك عبر حقبة تاريخية متعددة لذلك لا يستبعد تردد الحاج عمر وغيره من الفوتيين على موريتانيا لأسباب تجارية أو علمية .

ويكمن السبب الثالث في تفوق بلاد شنقيط على غيرها من بلدان فوتاتورو وفوتاجالون على مستوى توفير الأساتذة الأكفاء ذوي المستويات العلمية الرفيعة في

اللغة العربية ومختلف العلوم الإسلامية العقلية والنقلية ناهيك عما يوفره الفضاء الموريتاني من إمكانية الاندماج في الوسط الثقافي والحضاري قرآنا وسنة ، وشعرا ونثرا وتخطبا ، واحتكاكا بالعادات والتقاليد وفي أمور تساعد على التدريب على النطق بالعربية واكتساب عملياتها بسهولة (١٣).

ويذكر بعض الباحثين بأنه يمكن تقسيم تاريخ الحاج عمر الفوتي إلى أربع مراحل وأن المرحلة الأولى تبدأ من (١٨٢٨ - ١٨٤٦م) والثانية من سفره إلى بلدة برنو ومغادرته لها إلى بلا سكتو والثالثة إعلانه الجهاد في ١٨٥٢م والرابعة دخوله للنيجر ونهاية حياته (١٤).

وقد تميزت المرحلة الأولى بالوعظ والإرشاد ورسم لنفسه في هذه المرحلة الرحلة الشرقية للحج وزيارة الشام ومصر والتي صقلت معلوماته ووسعت مداركه خاصة بعد مكوثه في الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات ومجالسته لكبار علماء الحجاز والشام لقد رافقته في هذه الرحلة كلتا زوجتيه الأولى أم الأمير أحمد الكبير والثانية أم محمد الحبيب، كما ذهب إلى المدينة المنورة وأصبح فيها معروفا عند الخاصة والعامة كما وجد الاستقبال في بلاد الشام.

وكانت الفترة الأولى بالنسبة لعمر بن سعيد فترة دخول جدي في عالم التصوف توفر خلالها على الاطلاع على العديد من مؤلفات كبار المتصوفة ورافق خلالها الشيخ عبد الكريم الناقل في حله وترحاله في الأرجاء المختلفة لمنطقة الفوتاجلون وتوثقت صلاتهما إلى درجة أن الأخير دعاه إلى مرافقته لأداء فريضة الحج وقد وافق (ألفا) عمر بن سعيد الذي أصبح يحمل هذا اللقب العلمي الصوفي على العرض الذي قدمه له شيخه غير أنه استأذنه في العودة إلى أهله في فوتاتورو لأخذ الأذن من والديه للقيام بهذه الرحلة الشاقة التي قد تمتد إلى سنين طويلة يقطعها معظم حجيج الغرب الإفريقي حينذاك سيرا على الأقدام وما يستتبع ذلك من التعرض لشتى صنوف المخاطر

والمهالك في طرق الحج الممتدة من أقصى الغرب الإفريقي إلى موانئ عيذاب وسواكن وغيرها على البحر الأحمر^(١٥).

وخلال رحلته إلى الحج ذهب مع الشيخ عبد الكريم الناقل إلى مدينة (حمدالله) العاصمة الجديدة لدولة ماسينا وفي هذه المدينة توطدت علاقة الحاج عمر مع سكان ماسينا الذين عهدوا إليه بنشر مبادئ الدين الإسلامي لأبناء المدينة ولأبناء الأسرة الحاكمة وبذلك صار موضع احترام الحكام وقام كذلك بالتدريس والوعظ والإرشاد^(١٦).

رحلته إلى الحجاز :

وانتقل الحاج عمر من ماسينا إلى دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو حيث قضى سبعة أشهر غادر بعدها المنطقة إلى فزان والسودان المصري في ذلك الوقت وأخيرا وصل إلى مكة المكرمة عام ١٨٢٨م^(١٧).

وبعد أداء فريضة الحج التقى بسيدي محمد الغالي خليفة التجانية وممثل السيد أحمد التجاني بالحجاز ، وقد كان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة الحاج عمر بن سعيد أخذ خلالها الطريقة التجانية للمرة الثالثة على يد سيدي محمد الغالي واعتبر ذلك بمثابة انتمائه الحقيقي للطريقة التجانية، كما تلقى علي يديه دروسا حقيقية متتلما عليه طوال عامين كاملين ولازمه ليل نهار في خضوع تام وقهر للنفس وإذلال لها^(١٨).

وبعد أداء فريضة الحج للمرة الثانية قرر الحاج عمر زيارة بيت المقدس فاتجه إلى مصر ومنها إلى مدينة القدس ثم غادرها إلى دمشق حيث مكث شهرين عاد بعدها إلى مكة ليلتحق بسيدي محمد الغالي طلبا للمزيد من الغوص في أسرار الطريقة التجانية وطمعا في الفوز بالبركة وقد أهده سيدي محمد الغالي كتاب (جوهر المعاني) في الطريقة التجانية كما منحه درجة (مقدم) للطريقة في السودان الغربي وذلك عرفانا منه ، وصلاح تلميذه وحفزا له لورود النبع الأصلي الذي استقى منه هو نفسه وقد كان ذلك بمثابة إجازة للحاج عمر بن سعيد في الطريقة التجانية غير أن ذلك لم يكن كافيا لإطفاء غليل هذا الأخير الذي كان يبحث عن المعين الذي لا ينضب أي البركة^(١٩).

وبعد فترة من الانتظار امتدت طوال السنوات التي أمضاها الحاج عمر بالأراضي المقدسة منحه شيخه أسرار الطريقة وبركة السيد أحمد التجاني، وخلق عليه لقب خليفة عموم التجانية في غرب إفريقيا ثم أمره بالعودة إلى وطنه لكنس جميع البلدان من أدران الجاهلية والشرك، وكان هذا التكليف مسئولية كبرى ألقاها سيدي محمد الغالي على عاتق الحاج عمر بن سعيد الفتوي التجاني ظلت تشكل طوال حياته المرتكز الأساسي لأفكاره السياسية وتفسر إلى حد كبير مواقفه وتحركاته ليس فقط تجاه القبائل الوثنية في الغرب الإفريقي إنما أيضا تجاه القبائل المسلمة التي لا تعتنق الطريقة التجانية^(٢٠).

وقد أكد الحاج عمر الفتوي علي الدور الأساسي الذي قام به شيخه في سبيل إعداده لتجربة الإصلاح في بلاد السودان الغربي بقوله (.. وقال لي ونحن في المسجد النبوي وقت الضحى كنا نقدم الناس ونجعلهم مقدمين في إعطاء الورد وأما أنت فخليفة من خلفاء الشيخ لأمن المقدمين)^(٢١). وإن رتبة الخليفة تفوق رتبة المقدم لأن المقدم هو من أذن له أو أمره الشيخ بتلقي الأذكار اللازمة مع بعض الأذكار التي يختص بها الخواص وبعض من رعايا الخليفة الذي ينوب عن الشيخ في توصل الأذكار والأوراد والأحزاب والأسرار والتوجيهات والمقاصد والخلوات والآداب والعلوم والمعارف وله عليهم من الحقوق جميع ما كان للشيخ عليهم بحكم الخلافة والنيابة^(٢٢).

ونتج عن هذه الحركة للحاج عمر التي استغرقت حوالي ١٥ سنة عاد بعدها متوجا بلقب الحاج وبتعيينه خليفة التجانية بالسودان الغربي بعد أن أمتحن على يد محمد الغالي بوطالب وخرج ناجحا من هذا الامتحان^(٢٣).

وإذا كان التحلي بلقب الحاج كان يمنح صاحبه امتياز التصدر والزعامة والحكم في بلاد السودان إبان عهود مملكتي مالي سنغاي على الخصوص، فإن الحاج عمر زاد على الحج مزيتين مهمتين مزية العلم ومزية الولاية مما يعني أنه تحقق وبما أن العقل غالبا مالا يتعارض مع النقل فإن الشيخ عمر الذي توفرت فيه كل شروط المصلح والمنفذ لم يتردد في العمل على التغيير والثورة على الحكام المستبدين وقد ساعده في

ذلك هشاشة الأوضاع وترديها في كل بلدان حوض السنغال والنيجر بسبب طغيان الحكام وأقال كاهل رعاياهم بالضرائب وشتى أنواع الظلم والمهانة إلى جانب كارزيمته وانتمائه للطبقة الشعبية (٢٤).

على كل حال عاد الحاج عمر من مكة وهو عازم العقد على جمع مسلمي بلاده تحت لوائه ليقا تل بهم الوثنيين المستقرين بين المسلمين (٢٥).

عودته عبر مصر آثارها ونتائجها :

وفي أثناء عودته بمصر اتصل بشيوخ الجامع الأزهر ولا نعرف إذا كان تتلمذ على علماء الجامع الشهير غير أنه من المحتمل أن يكون قد استفاد مما شهده في أرض الكنانة لأن هذه البلاد بدأت تحتك بالغرب بعد حملة نابليون ولا يستبعد أن يكون قد عرف معلومات تتعلق بتقدم أوربا المادي الذي جعلها تبيت النية وتعمل على إخضاع البلدان الإسلامية لسيطرتها (٢٦).

إن احتكاك الفتوي بعدة شعوب إسلامية في القرن الثالث عشر الهجري، ومعرفته الدقيقة بأحوالها ودراسته الطويلة للتاريخ الإسلامي، أحدث تحولا كبيرا في تفكيره وتحليله لقضايا الإسلام فجعله يفكر في ضرورة تغيير الأوضاع حيث وعى بثاقب فكره أن دور المسلم لا ينبغي أن يقف عند أداء الشعائر الدينية - كما كان شأن كثير من شيوخ عصره - في الوقت الذي تتردى فيه شؤون المسلمين إذ لا يليق بالشيوخ الركون والاستكانة والتمسكن والابتعاد عن مشاكل المسلمين السياسية - والاجتماعية والاقتصادية والتفرج على ظلم وتعسف الأمراء الوثنيين الذين يسومون المسلمين أشد الإهانة والقهر (٢٧).

لقد اندهش الفتوي لدى مقدمه من الشرق الإسلامي من فتور الوازع الديني لدى المسلمين وتشنت قواهم وتفشي الجهل فيهم مما يبعث على الرثاء واعتقد أن واجبه أن يهب لنصرة بني دينه ما وجد لذلك سبيلا، وهذا الموقف - يقول (ديمون) عنه ليس له تعليل سوى نمو السمات الآتية في الفتوي منذ صباه (الإيمان والرغبة في نشر العقيدة

الإسلامية ، وحماية الإسلام من سوء الفهم الذي أصابه في إفريقيا بسبب جهل العامة المجردين من كل تعليم وغير القادرين على الرجوع إلى الشريعة إضافة إلى تسرب بقايا الوثنية الخفية (٢٨).

زيارته لبرنو :-

وعاد الحاج عمر عبر فزان إلى برنو سنة ١٨٣٣م ثم ذهب إلى بلاد الهوسا وأخذ يعظ الناس للرجوع إلى عقيدة السلف (٢٩).

وقد استضافه الشيخ محمد الأمين الكانمي شيخ برنو وزوج ابنته (مرياتو) التي أنجب منها ابنه عجيب الذي صار فيما بعد رئيسا لمدينة دنجري (٣٠).

وعندما كان الحاج عمر في طريق عودته من الديار المقدسة سمع بأن نار الفتنة لازالت قائمة بين القطرين (برنو وسكتو) فعزم على تحقيق مبتغاه في الإصلاح بينهم ولا يذكر لنا الحاج عمر وسائل مساعيه للصالح بين الطرفين سوي إنشاده قصيدة منها هذه الأبيات :

تقاتلا وسفكا للدماء	وأسرا الأحرار اعتداء
اعلم أن كل فعل العسكر	فعل أميرهم غدا في المحشر
اصطلاحا قبل ذهاب العمر	وسابقا لقطع هذا الوزر (٣١)

وتسكت المصادر عن هذه الأحداث وعن رد فعل كل من الكانمي زعيم برنو ومحمد بيلو أمير سكتو لكن يبدو أن الحاج عمر كان متحيزا لمحمد بيلو ولذلك لم يجد الترحيب الكافي في بلاد الكانمي الذي لم يقبل نصحه بالإضافة إنه استطاع في ظرف وجيز أن يجمع حوله عدد كبير من الأتباع في برنو واستقطاب أحد الأمراء وهو أحمد بن الماي على الذي أخذ عن الحاج عمر الإذن بالدخول في التجانية (٣٢) فيما كان الكانمي قادريا ولهذا لم يستمر عمر طويلا في برنو (٣٣).

وتجدر الإشارة لمرور الحاج عمر قبل سفره إلى مكة بعدد من بلدان إفريقيا الغربية مثل (ماسنة) و(سكوتو) و (غواندو) و (بورنو) حيث وقف بنفسه على حقيقة جهاد الشيخ عثمان بن فودي ودرس منهجه في الجهاد كما اطلع على برنامج الشيخ في عمليات الإصلاح الاجتماعي والفكري^(٣٤).

زيارته لخلافة سكتو :

ولذلك عند عودته من الحج مر على خلافة سكتو لزيارة السلطان محمد بيلو ويقال إن السلطان محمد بيلو قد تردد كثيرا قبل السماح للحاج عمر بدخول مدينة سكتو وذلك ربما خوفا من أفكاره التجانية التي أخذ يبثها أثناء سيره في السودان الغربي ومن هجومه الكاسح على رجال الدين في غرب إفريقيا، ووصفه بإهم بالجهل والنفاق، وعلى الطريقة القادرية التي كان يعتنقها السلطان بلو نفسه واتهامها بالتساهل في أمور الدين^(٣٥).

والراجح أن الحاج عمر وجد مكانة خاصة في بلاط محمد بل منذ وصوله إلى سكتو كما أمدق عليه كثيرا من العطايا وزوجه ابنته (حفصة) فأكرم محمد بل عمر بهذا الشكل وتقديم ابنته زوجة له خير دليل على المكانة التي كان يحتفظ بها، كما أنه تبرك بمجيئه وجعله فاتحة خير على بلاده ويطلب منه الدعاء له بالنصر باعتباره ولياً صالحاً دعاؤه مستجاب عند الله^(٣٦).

وقد مكث الحاج عمر ضيفا على الخلافة الصكتية حوالي اثنتي عشرة سنة على مرحلتين وتمكن رفيقه محمد بيلو من الاطلاع على أسرار الدعوة والجهاد وتسيير الدولة وقد استفاد من تجربة الشيخ عثمان بن فودي أكثر من غيره وقد أحاطه محمد بكل عناية ، كما أطلعته على أسرار دولته وجعله بجانبه في سائر أعماله مما جعله يكتسب خبرة عالية سواء في الميدان العسكري وأمور الحرب أو في الميدان السياسي . ولقد تمكن من الاطلاع الواسع على الإنتاج العلمي الضخم الذي ألفه عثمان بن فودي وأخوه عبد الله في أمور الشرع والسياسة والحكم، ولقد تأثر الحاج عمر كثيرا بخلفاء

صكت في جميع مراحل حركته الإصلاحية فقد تبنى أفكارهم وطبقها في مسيرته السياسية وكان لها أثر بالغ في النجاح الذي حققه (٣٧).

ويمكن إرجاع هذا إلى رغبة الرجلين في تأسيس الخلافة الإسلامية الكبرى وربط إفريقيا جنوب الصحراء بشمالها (٣٨) مما يؤكد (تأثر جهاد الشيخ عمر بن سعيد الفوتي بأفكار الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية) (٣٩).

وكادت إفريقيا كلها أن تكون مسلمة على يد هؤلاء الشيوخ لولا تدخل الأوربيين فقد أورد (بونو أموري) في مؤلفه الإسلام والنصرانية في إفريقيا بأن (الكولونيل ارشينارد بأخذه جني وبندياجرا أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من إفريقيا، ويسر فتح السودان بين يدي (المدنية الأوربية) .. مما خلد (أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين) وأعاد ذكرى ظفر شارل مارنل في بواتيه بسبب ما كان يترتب من النتائج العظيمة لمستقبل إفريقيا لولا هذا الظفر)، ويدل هذا القول على مقارنة المد الإسلامي في بلاد السودان على يد الحاج عمر وعثمان بن فودي بالفتوحات الإسلامية في أوربا والوزن الذي اكتسبته هذه الحركات في أعين المستعمر الأوربي (٤٠).

وبوفاة السلطان الخامس والعشرين من عام ١٨٣٧م قرر مجلس أعيان إمبراطورية سكتو مبايعة الشيخ عتيق بن الشيخ عثمان بن فودي سلطانا خلفا لأخيه السلطان محمد بلو وبعدها غادر الحاج عمر إمبراطورية سكتو في مطلع عام ١٨٣٨م متجها إلى مدينة (الحمد لله) في موكب ضخم من الأتباع والمريدين والطلاب الذين استطاع اجتذابهم اثناء بقاءه بسكتو ، وعند وصوله إلى مدينة الحمد لله استقبله (شيخو أحمدو) استقبالا حسنا على الرغم من محاولات الشيخ أحمد البكاي خليفة الطريقة القادرية بالسودان الغربي حينذاك إفساد ما بينهما ، فقد كان هذا الأخير يشعر بالكثير من الغيرة التي تصل حد البغض تجاه الحاج عمر وذلك نظرا للانتشار السريع الذي أخذت تسجله الطريقة التجانية التي يدعو لها على حساب الطريقة القادرية المتجذرة في تربة السودان منذ أخريات القرن السادس عشر الميلادي (٤١).

رحلات الحاج عمر الفوتي في السودان الغربي :

زار الحاج عمر الفوتي أجزاء من مناطق الإقليم أثناء رجوعه من الأراضي المقدسة وتوقف على سنغامبيا والنيجر وعرفت السنين الأخيرة من زيارته لهذه المناطق من عام ١٨٤٠م ١٨٥٧م بأنها مهمات استكشافية ولقد اكتنف الغموض هذه الزيارات، وكان واضحا بداياتها فوتاجلون (الآن جمهورية غينيا) وجهته التي كانت فوتاتورو (الآن جمهورية السنغال) . وكانت انطلاقة وعودة الإصلاح في فوتاجلون ومنها إلى جقنكو Jegunku ومنها إلى لابي Labbe إلى غابو Gabu واستغرقت رحلته هذه زهاء العام كان يدرس خلالها ويعظ ويؤسس لحركته غربا إلى جاروا Gara وبادي بو Badibu غامبيا (٤٢).

ومن هناك واصل رحلته إلى باكو Bakau جنوب السنغال وواصل رحلته إلى تسنالوم إلى (كاير) إلى (جولف) إلى (باول) وأخيرا إلى فوتاجلون وبهذا يكون الحاج عمر الفوتي قد زار معظم السودان الغربي ، وكانت هذه الرحلات أو الزيارات جزءاً من خطة الحاج عمر ليوطد التواصل بينه وبين المجتمعات المسلمة، وكانت إقامته المؤقتة في قابو (Gabu) لأكثر من عام تعتبر مهمة لأنه استطاع أن يجذب إليه المريدين (الحيوان) وبهذا يكون قد أسس القاعدة لحركته الإصلاحية (٤٣).

وكان لرحلاته الخارجية الأثر في إدخال الأفارقة الإسلام بل استطاع أن يعين المقدمين لياشروا عملهم الإصلاحي وأن يكونوا قادة لمجتمعاتهم مستقبلا. ولقد تم تعيين (الألفا مولو) مقدا في عام ١٨٢٣هـ - ١٨٤٦م وكان يتلقى التعليمات والاتجاهات الفكرية من الحاج عمر الفوتي واستطاع أن ينجح في تطوير سلطاته وأن يكون إمبراطورية إسلامية، كما عين الحاج عمر الفوتي شيخ عثمان ديوب ومابا جاخو مقدمين ومن الأهمية بمكان أن هذين المقدمين استطاعا أن يربطوا بين حركتي الجهاد في بوندو و بني سالوم وأن يوطدا ولايات ذات نفوذ إسلامي قوي في العام ١٢٧٠ - ١٨٦٠م، وفي كمبو (قامبيا) عين الحاج عمر الفوتي (فودي سيلا) الذي نجح

بدوره في الاستيلاء على أراضي كبيرة في غرب قامبيا وأسس فيها ولاية إسلامية قبل أن يقبض عليه وينفي إلى سنت لويس بالسنغال ويتوفى بها عام ١٣٣٢ - ١٩١٣م^(٤٤)

ويقول الرحالة الفرنسي (ماج) في كتابه رحلة في السودان الغربي الذي صدر في باريس عام ١٨٦٨م، بأن الحاج قد تخير فوتالون دون موطنه الأصلي لأنه يعلم بأن الأنبياء مضطهدون في بلدانهم، وبهذا أراد أن يكتسب قوته العسكرية ونفوذه الديني خارج وطنه حتى يتسنى له العودة إلى فوتا السنغالية فاتحا مظفرا، وعلى الرغم من أن الرأي الذي ذهب إليه (ماج) اجتهد مشروع إلا أن فوتالون لا تبعد كثيرا من أماكن وجود تجار السلاح الأوربيين على الساحل، كما أن بها الكثير من مناجم الذهب الشيء الذي سيمنحه القوة الشرائية إذا ما أحسن استغلالها ومقايسته بما يحتاجه من سلاح ناري^(٤٥) ومن بارود. وقد استطاع الحاج عمر أن يجتذب الكثير من شباب المنطقة حتى ارتفع عدد مقاتليه في فترة وجيزة من الزمن إلى عشرة آلاف مقاتل مسلحين بالسلاح الناري، وبعد هذا الاستعداد العسكري قبل الدخول الفعلي في حروب الجهاد انقطع الحاج عمر في خلوة تامة اعتزل خلالها الناس للعبادة والتأمل وهي الفترة التي يذكر فيها بأنه تلقى التوجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم في الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٢٦٨م الموافق السادس من سبتمبر ١٨٥٢م بمحاربة الكفار نشرًا للإسلام^(٤٦).

وتشيد المصادر التجانية بالدور العلمي والتعليمي والتربوي للحاج عمر الفوتي وزيارته لطلابه بتعليم علوم الظاهر ورشادهم إلى علوم الباطن ويذكرهم ويعظمهم صباح ومساء بالموعظة الحسنة والحكمة البالغة، ويتكفل بكسوتهم ونفقتهم^(٤٧) ويزوجهم وذلك في سبيل الإعداد للجهاد.

العمل العسكري :

استقر الحاج عمر في دنجوري عند التقاء نهر فوتاجالون مع نهر بامكو ويوندو وقضى الفترة منذ عام ١٨٤٨م إلى عام ١٨٥٠م في تدعيم دولته فبنى في دنجوري ومن هناك بدأ يعلن الجهاد ضد الوثنية وبدأ بغزو إمارة البصيارا في كارتا وألحق الهزيمة بجيشها في عام ١٨٥٤م واستولى على أهم المدن بها ورفض حكام ماسينا دعوته ، اتجه نحو الغرب لمهاجمة الإمارات السنغالية في حوض السنغال الأوسط وهناك التقى بالقوات الفرنسية في عام ١٨٥٧ والتحم بها، واضطر إلى الرجوع إلى الشرق كما تغلب على الماندنج وانتصر على المباراة في كارتا وسيقو وحول ممالكها للدين الإسلامي (٤٨).

وأدرك الحاج عمر أن إمكانياته سواء على المستوى العسكري أو على المستوى التنظيمي لدولته الفتية لايمكنها الصمود كثيرا أمام الآلة العسكرية الفرنسية لذلك اتجه نحو الشرق (سيكو) كما جذبت الإدارة الفرنسية بعض الفقهاء الموالين لها للطعن في دعوات الحاج عمر واستخدمت لهذه الغاية غير واحد من الفقهاء نخص بالذكر مهم الفقيه أبوالمقداد (٤٩).

على أن توجه الحاج عمر إلى الشرق لايعني رغبة في السلم ومهادنة الاستعمار وإنما هو تكتيك سياسي واستراتيجي مرحلي لجأ إليه حتى الوالي فيديرب على الرغم من تفوق آتته العسكرية حيث وجدناه عام ١٨٦٠م يسعى سعيا حثيثا لتوقيع اتفاقية سلام مع الحاج عمر (٥٠) ويتضح من خلال الوثائق المتوفرة أن المجال المتأث المكون من نهري السنغال والغاليمي حيث مناجم الذهب (بوري، غالم، بامبوك) شكّل أحد نقاط الارتكاز لسياسة فيديرب التوسعية ذلك أن إخضاع هذا المجال يعني التخلص من ضغط الخزينة الفرنسية الراضية لأي تمويلات إضافية للحملات الاستعمارية في المنطقة ، كما يعني إمكانية غزو السوق السوداني تجاريا والتحكم في الطرق المؤدية إلى غامبيا وفوتاجلون وجميع هذه المعطيات تسمح بتطويق السنغال الأعلى وبالتالي منع إي انتشار مجالي للدولة الإسلامية التي أنشأها الحاج عمر (٥١).

وكان الحاج عمر قد خرج من السنغال منذ سنة ١٨٥٩م واتجه بحركته إلى ماسينا حيث أقام دولة إسلامية هناك وما كادت سنة ١٨٦٢م تنتصف حتى بدأت الأخبار تتوارد على منطقة أعالي النهر تزف بنجاح أمر الحاج عمر في ماسينا كما تؤكد على رغبته في العودة للسنغال لإخراج الفرنسيين من البلاد وكان لهذه الأخبار وقع كبير على الأهالي والزعماء الشيء الذي حفزهم وجعلهم ينتفضون ويثورون كما هو الشأن بالنسبة لإمام فوتا الوسطى الفا أحمد وغيره، ولذلك عملت فرنسا على إضعاف قوات الحاج عمر وجعلته عاجزا عن الوقوف في وجه زعماء ماسينا الذين ثاروا ضده وأطاحوا به في فبراير ١٨٦٤م (٥٢).

وقد حاول الحاج عمر الفتوي التكروري بناء إمبراطورية إسلامية على أنقاض الدويلات الصغرى في وادي السنغال وذلك على أساس الطريقة التجانية التي حاول الحاج عمر الفتوي إدخالها بين جماعة حمد الله (٥٣).

وكان هناك عدد من علماء خلافة ماسينا قد اعتنقوا مبادئ هذه الطريقة لكن لم يمارس هؤلاء العلماء أي نشاط لها في ماسينا قبل قدوم الحاج عمر للمنطقة، كما أن الشيخ المختار ابن وديعة الله أحد العلماء البارزين في حمد الله قد أرسل قصائد إلى الحاج عمر في دنجوراء وقد حاول بعض زعماء ماسينا اغتيال الحاج عمر خلال زيارته لها، كما أن بعض علماء الطريقة البكاية كانوا يضمرون العداة للحركة التجانية وكان الصراع محتدما داخل خلافة حمدالله بين أتباع التجانية وأصحاب الطريقة القادرية السائدة في الخلافة، وكان التنافس واضحا بين الطرفين وكان أتباع الطريقة يبحثون عن وسيلة لاستقلال حمد الله عن التجانية، لكن الجيل القديم أيام الشيخ أحمدو لوبو اعتبر أن قدوم الحاج عمر وفرض الطريقة التجانية في خلافة حمدالله هو الأمل الوحيد لعودة المظاهر الدينية الصحيحة في ظل حكم إسلامي قوي وكان رائد هذه الفكرة الشيخ المختار وديعة الله الذي كان علي اتصال بالحاج عمر وكان يعده بتسهيل مهمته لبسط سيطرته على هذه الخلافة (٥٤).

ويرى الباحث المالي (إبراهيم عثمان انغوييا) أن هناك عدة أسباب قادت للخلاف بين الحاج عمر وخلافة حمد الله (ماسينا) على هذا النحو :-

- الخلاف حول مسألة فقهية وذلك أن الشيخ الحاج عمر حكم على خصمه أمير ماسينا بالكفر وبالتالي أعلن الجهاد ضده لمولاته لمنطقة سيغو الوثنية وأن قتال الكفار مشروع في دين الله .
- دخول الشيخ الحاج عمر تال على بعض البلدان (سيغو) التي كان أحمد بن أحمد يراها تحت طاعته فأراد الانتقام من الحاج مر بالتحالف مع الكفار لمحاربتة.
- رفض ماسينا الحرب إلى جانب الشيخ عمر ضد الفرنسيين لما طلب ذلك من أميرها أحمد بن أحمد.

ويصل إلى القول بأن الاختلاف الطريقي بينهما كان عاملا فعلا في هذا الصراع (لأن كل واحد منها يرى أنه أحق بالإمامة والسلطنة والمبايعة أكثر من غيره) (٥٥).

آثاره ومصنفاته :

وإذا كان دور الحاج عمر قد وضح في جهاده ضد القبائل والدويلات الوثنية في السودان الغربي فإن المخطوطات التي تركها لا تقل أهمية عن دوره الحربي، فلقد ترك الحاج عمر مؤلفات كان لها أثرها في نشر الدين الإسلامي في السودان الغربي ومن مؤلفاته الخطية على سبيل المثال لا الحصر : أجوبة مسائل وفتاوى متنوعة وعقيدة هاديات المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله ومنظومة في إصلاح ذات البين عبارة عن أرجوزة كتبت في فزان في طريق ذهابه للحج وسيوف السيد المفقد في أهل الله وتذكرة المسترشددين وفلاح الطالبين وسفينة السعادة في أهل الضعف والنجاة (٥٦).

وأشهر كتب الحاج عمر على الإطلاق هو كتاب (رماح حزب الرحيم على نحور الرحيم). وهو منشور على هامش أهم كتب التجانية جواهر المعاني والكتاب يقع في خمسة وخمسين فصلا بعد مقدمة .

الفصل الأول: - في أعلام الإخوان عن أهل الله والذب عنهم ونصرهم على من ينقصهم ويريد الكيد لهم.

الفصل الثاني: في ترغيب الإخوان في الانتساب إلى أولياء الله تعالى والتعلق بهم ومحبتهم وخدمتهم .

الفصل الثالث: في أعلامهم أن الاعتقاد في أهل الله الصادقين وتصديق ما يبرز منهم العلوم والمعارف والتسلم لهم ومحبتهم ولاية^(٥٧).

الفصل الرابع: في بيان أن الحجب التي تمنع الناس عن معرفة أولياء الله سببها عمى البصيرة والوجدان وعدم الثقة في أسرار النفس .

الفصل الخامس: يؤكد فيه أن زهد الكاملين ليس هو بخلو الدين من الدنيا بل هو بخلو القلب.

الفصل السادس والسابع: عود إلى التحذير ممن يهاجمون أولياء الله.

الثامن: تأكيد أن الله تعالى لم يوجب على أحد التزام مذهب معين من مذاهب المجتهدين.

التاسع والعاشر: تأكيد أن من يحاول إنكار شيء ما لابد له من الإحاطة الواعية بعلوم الشريعة والحقيقة .

الحادي عشر حتى السابع والعشرين، تأكيد عدم الخلاف كنهج للوصول إلى الحقيقة وضرورة وجود رائد يضيء معالم الطريق ، ويفصل عمر الفتوي في هذه الفصول محددًا أصول الطريقة واخذ البيعة والعهد محذرا من قصص الكشوفات الكونية ورواياتها والكرامات وحكاياتها.

الفصل الثامن والعشرين حتى الثلاثين يذكر عمر الفتوي سنده في الطريقة التجانية وما وصل إليه فيها من البداية حتى توليه ريادتها .

الفصل الحادي والثلاثين حتى السادس والثلاثين يتحدث مؤكداً أن أولياء الله الخالص يحضر النبي صلى الله عليه وسلم مجالسهم بجسده وروحه كما يحدثنا عن آداب الذكر وأوراد الطريقة اللازمة وغير اللازمة .

الفصل السابع والثلاثين حتى الثامن والأربعين يحدثنا عن فضل التجانية وشيخهم الكبير .

الفصل التاسع والأربعين حتى النهاية يدعو الفتوي أنصار التجانية إلى الصبر على طول الطريق وتحمل أذى المنكرين ودوام الاجتهاد والإخلاص في العبادة والصدق ودوام الاستغفار والمحاسبة للنفس والتوبة (٥٨).

كما اهتم كتاب روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة والذي يعد كتب تراجم عرف فيه مؤلفه بكبار رجالات التجانية في السودان الغربي بالإضافة إلى آخرين في شمال المغرب وجنوبه ويرى (الأزمي) أن هذا الكتاب مشهور ومخطوط (٥٩) ولكن قد نشرت منه تراجم في مجلة طريق الحق القاهرية التي أصدرها الشيخ محمد الحافظ المصري التجاني .

وقد ورد في العدد الخامس من هذه المجلة التعريف بالحاج عمر الفتوي (ومنهم شيخنا أمير المؤمنين عمر بن سعيد الفتوي فتح الأقاليم والبلدان وكسر الأصنام والأوثان وأنار القلوب والأبدان وطهر السرائر والإعلان له سيوف ورماح حسيتان يجاهد بهما المارقين عن الشريعة المحمدية وسيوف ورماح معنويتان في علوم الحقيقة وأسرار الطريقة التجانية اتفق علماء عصره وأولياء قطره على أن الزمان لم يسمح بمثله وأنه ممن يقدر إذا تعطلت الكتب من الدنيا أن يملئها على الناس من حفظه ، نشر الطريقة وبثها أخبرني أنه ربما لقن الورد لألوف في وقت واحد (٦٠).

كما وردت في هذا الكتاب أخبار تاريخية قيمة أخرى متفرقة كان المؤلف شاهداً

عليها أو دونها من قائلها مباشرة (٦١).

أسلوب الحاج عمر الفتوي في الدعوة :

يعتقد الحاج عمر أن فكرة الإصلاح تتلخص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما دعا الحاج عمر إلى تغيير جذري في النظام التعليمي عند المسلمين في السودان الغربي وإلى تحسين أساسي في سلوكهم الخلقي وفي حياتهم الروحية والمادية وبهذا فقط يتمكنون من فهم الشريعة الإسلامية فهما دقيقا وتطبيقها تطبيقا سليماً، فالتربية والتعليم هما الوسيلتان للوصول إلى هذه الغاية العظمى فعن طريق التربية والتعليم يستطيع الإنسان أن يحصل على الفتوى والمعرفة الصحيحة للشريعة ويتمكن من تطبيق قوانينها تطبيقاً سليماً طبقاً لمذهب السلف الصالح (٦٢).

كما ارتبطت التربية بالهجرة وخاصة حين تعرضت حركة جهاد الحاج عمر للضغط والإرهاب من جانب السلطات الدينية في السودان الغربي فلقد تبني الحاج عمر الفتوى - كما فعل الشيخ عثمان فودي - مبدأ الهجرة كرد فعل سلبي على تعسف حكام المنطقة وضغطهم على رعاياهم بيد أن مفهوم الهجرة عند الحاج عمر يختلف إلى حد ما عن مفهوم الهجرة عند الشيخ عثمان، فالحاج عمر لا يرى الهجرة مجرد انسحاب وابتعاد من مكان يتعرض فيه الإنسان بنوع من أنواع الضغط والإرهاب بل الهجرة عنده تنقسم إلى قسمين: الهجرة الصغرى وتعني الانسحاب من مكان المعارضة والإرهاب، وهجرة كبرى وتعني هجرة روحية تمكن الإنسان من تطهير نفسه وتنوير قلبه استعداداً للهجرة الكبرى التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الجهاد الأكبر أي جهاد النفس الذي يعتبره الحاج عمر أهم وأخطر من الجهاد بالسيف (٦٣).

وبهذا يدرك الإنسان أن الهجرة هنا لا تعني فقط الانسحاب من دار الحرب إلى دار السلام كما كان الأمر بالنسبة للمجاهدات الأخرى وإنما تعني أيضاً هجران الفساد وفي محاولة لاكتشاف الجهات التي يصدر منها الفساد ذهب الحاج عمر إلى أن السلاطين الجائرين وعلماء السوء المتعاملين معهم يكون أخطر مصدر من مصادر الفساد في ذلك الوقت فالهجرة واجبة على المسلم كي لا تؤدي إقامته مع هؤلاء السلاطين والعلماء

إلى أن يتأثر بهم أو يتعاون معهم في استغلال الفقراء والاعتداء على الضعفاء أو يشاركهم في سلوكهم الفاسد من ارتكاب المعاصي المهلكة^(٦٤).

وفي كل مرحلة من مراحل جهاده كان الحاج عمر ينظم اجتماعات دورية منتظمة ففي هذه الاجتماعات كان الحاضرون يقومون بثتى أنواع المجاهدات من نوافل وأذكار إلى جانب ما كانوا يتلقونه من الدروس في العلوم الإسلامي^(٦٥).

ولذلك قسم الحاج عمر في موقف الناس من دعوته مجموعتين فسمى المجموعة الأولى التي وقفت معه وجاهدت في صفوفه حزب الرحيم، بينما سمي المجموعة الثانية التي وقفت ضده وقاومت دعوته حزب الرجيم، فبتسمية معارضية والذين قاوموا حركته حزب الرجيم بدلا من الكفار كان الحاج عمر يحاول أن يتفادى استعمال كلمة كافر في صف معارضية من المسلمين ذلك لأنهم مع معارضتهم إياه مازالوا مسلمين فلم تكن المسألة مسألة كفر وإسلام بل مسألة حق وباطل أي خطأ وصواب سواء كان صدر من مسلم أو من كافر^(٦٦).

ويؤكد الفتوي أن زهد الخواص الكاملين ليس هو بخلو اليدين من الدنيا وإنما بخلو القلب وينبغي الفتوي على أولئك الذين لا يتكسبون من جهد أيديهم وعقولهم أنهم بعيدين عن الطريق الصحيح ويصل الموقف كما وصله الغزالي من قبل في أن العمل مرتبط بالعلم وبالتوكل جميعا ومن هنا كما يقول عمر الفتوي سارع الأكابر من الأولياء إلى التكسب بالزراعة والتجارة والحركة (ثم إنهم في الوقت نفسه رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ..) ثم إنه (قد أخذ العهد علينا أن نعلم أولادنا الحرفة فإن من لم تكن له حرفة كل بدينه أو بلسانه^(٦٧).

ويعني الفتوي أولا وأخيرا التقليدية العمياء وما مثل المقلد عنده إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا .. كما أن دراسة المذاهب والفرق والطوائف الأخرى أمر لابد منه لزيادة المعرفة والوصول إلى الحقيقة^(٦٨).

ومن الواضح أن المسألة الرئيسية التي شغلت بال الحاج عمر من سنة ١٨٣٠ - ١٨٥٢م كانت فكرة إقامة سلطنة في السودان الغربي بطريقة سلمية إلا أنه يبدو أن الحاج عمر تخلى عن هذه النظرية وتطوير مبدأ الهجرة وجهاد النفس إلى مرحلة استعمال القوة أي الجهاد بالسيف (٦٩).

ولقد أعلن الجهاد وأسس المراكز العلمية والمكاتب الإسلامية في كل من السنغال حيث مولده وغينيا من حيث مقره (الدينجاري) ومالي من حيث مدينة (نيورو وكوناكري وسيكو) ومن زار هذه المناطق يجد آية من آيات آثاره باقية في هذه البلدان من الحصون القوية ولا تزال هذه الحصون واقفة تحكي ماضي المجتمع الإسلامي في أيام الحاج عمر بن سعيد الفوتي (٧٠).

المبادئ السياسية التي نظمها الحاج عمر الفوتي (حركة الإصلاح) :

كانت أفكار الحاج عمر الفوتي ومبادئه هي أسلمة كل الأفارقة وكان هدفه الأول هو أسلمة كل الإقليم الغربي كخطوة أولى للتأثير على التوجه الاجتماعي والوحدة السياسية والتقدم الاقتصادي من خلال مناشدته للنظام الروحي (المقاصد السنية) والذي كتبه في ١٢٥١هـ - ١٨٣٥م وناقش فيه أفكاره السياسية بشيء من التفصيل وقسمه إلى سبع نقاط أبرزها الاعتقاد بالسلطة أي أن القيادة أهم عنصر في حياة الناس الاجتماعية والسياسية ووفقا لمعتقداته أن القيادة يجب أن تجسد كل طموحات شعبه وهكذا يعتمد النجاح والفشل على قادة الجهاد ولكي يكون القائد ناجحا يجب عليه أن يفي بالالتزام بالسبع نقاط التي وردت في (المقاصد السنية) وهي :

- الاعتقاد الذي لا يدعو مجالا للشك في غرس المفاهيم في أفكار الناس من خلال تقديم النظام الروحي .
- العزم والإصرار على حمل الإصلاح تحت أي ظروف .
- خلق المساواة لجذب التابعين والقدرة على إبقائهم على وحدة التماسك.

- التشديد على الدور الرئيسي للعدالة الاجتماعية وتطابقها مع كل الأقسام وعلى المستويات الإدارية وأن معيار العدالة لا يميز بين الطبقات بأي حالة .
 - مخرجات الدبلوماسية بالنسبة للناس يجب أن تقسم إلى مجموعات وفقا للميزات والاستحقاقات والتوزيع العادل للمجتمع.
 - المرونة دون خدش مبادئ الآخرين مثل الاعتقاد الديني وممارسته.
 - البرنامج السياسي يجب أن يطرح وفقا لكل أنواع الممارسات الروحية (٧١).
- لهذا فإن القائد الجيد هو الذي يفهم أن السلطة هي سلطة الله تعالى وأن مباشرة العدل يجب أن تحترم وأن تطاع أوامر الله ونواهيه ليست العدل على الأرض (٧٢).
- ولم يعيش الحاج عمر الفوتي طويلا ليطور أداءه الإداري في الأقاليم التي وحدها دينيا وسياسيا ومن الصعوبة أن ترى هذا الامتداد لأنه لم يستطع أن يكون دولة لتحقيق مراميه الإصلاحية مستخدما مصادره الخاصة لإحلال العدل والخدمات المتساوية بين الناس (٧٣).

منجزات جهاد الحاج عمر ونواقصه :

ساعد جهاد الحاج عمر سكان مملكة (جالونكا) في فوت جالون وسكان (غابو) من الفولانيين الرحل ومعظم شعب (ولف) وقسم كبير من قبيلة (سرير) في سنغيبيا الذين اعتنقوا الإسلام تدريجيا ولكن بحماسة ملحوظة . وإلى جانب هذا فجهاد الحاج عمر كان سببا رئيسيا في تأخير تقدم التسلل الأوربي السياسي والثقافي في منطقة السودان الغربي وفوق هذا وذلك فلقد كان جهاد الحاج عمر المصدر الذي استوحى منه كثير من المجاهدين والوطنيين الذين قاموا بحركات ثورية ووطنية ضد الاستعمار الفرنسي والإنجليزي فيما بعد وإلى جانب هذا فجهاد الحاج عمر كان مسؤولا عن انتشار الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي (٧٤)

وعلى الرغم من هذه المنجزات التي حققها جهاد الحاج عمر إلا أنه يعجز عن إقامة نظام سياسي واقتصادي فعال يستطيع أن يقوم بإدارة الأراضي الواسعة التي

غزاها بجيوشه في حروبه ضد الكفار وحلفائهم من المسلمين وقد نتج عن هذا العجز مشاكل إدارية وسياسية واقتصادية خطيرة فيما بعد ثم انتهت بثورات داخلية ونزاعات على السلطة أنهكت الدولة وأضعفتها الأمر الذي ساعد الجيوش الفرنسية على غزو البلاد في سنة ١٨٩٠م كما أن العمليات الحربية في جهاد الحاج عمر استمرت أكثر من عشر سنوات الأمر الذي جعل الحاج عمر يقضي جميع أوقاته في تجنيد الجنود وشن الحروب دون التفكير في إقامة نظام سياسي واداري فعال يقوم بإدارة البلاد المفتوحة وتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية فيها - الهدف الأساسي الذي قام الجهاد من أجل تحقيقه، كما أن موت الحاج عمر شهيدا خلال العمليات الحربية في سنة ١٨٦٤ لم يمكنه من ترجمة ثورته الثقافية والفكرية إلى نظام عملي^(٧٥).

كما أن الحاج عمر لم يعمل بنصيحة مريده بن وديعة الله يركي تلف بعدم دخول مدينة حمد الله وقتال أحمد لب لأن في ذلك تفسير لقوة المسلمين وإضافة خصوم جدد إلى خصومه السابقين^(٧٦) وليس صحيحا ما ذهب إليه الدكتور غنمي عمرو سعيد من أن (الطابع التعسبي الذي اتسم به أهل الطريقة التجانية وموقف الرفض في الآخر فإن دولة عمر الفوتي لم تستمر بعد وفاته وسرعان ما خمدت نيرانها في عام ١٨٦٤)^(٧٧).

إذ لم تنته الحركة العمرية بالمكيدة المدبرة التي أدت إلى هزيمته سنة ١٨٦٤م بل استمرت الحركة الجهادية في شخص مريديه مثل أحمد التجاني وشخص خليفته الشيخ أحمد بن عمر الذي صار على نهج والده في توسيع الإمبراطورية ونشر الإسلام ومحاربة الاستعمار الفرنسي^(٧٨).

إذ واصل الشيخ أحمد بن الحاج عمر طال دعوة أبيه بعد وفاته حيث استطاع نشر الطريقة التجانية حتي مشارف نهر النيل^(٧٩).

كما أنه بعد وفاة الشيخ عمر خلفه ابنه المجاهد أحمدو شيخو الذي رفع رايات جهاد الفرنسيين بعد أبيه وظل في صراع مستمر معهم واشتد الصراع عندما قررت

القوات الفرنسية تصفية المقاومة الإسلامية في (مالي) الحالية ، وتولى تلك العملية القائد ارسيناد في ١٨٩٠م فتصدى له الشيخ أحمد في (مايل) واستشهد عدد كبير من أتباعه إلا أن الشيخ أحمد لم يستسلم كما توقع الفرنسيون .

وانما اتجه لتنظيم قواته من جديد بينما واصل الفرنسيون احتلال المدن المهمة مثل تمبكتو في ١٨٩٤ (٨٠) وجني (التي أطفأت الجيوش الفرنسية فيها ما بقي من شعلة العلم والمعرفة وأغلقت ما بقي من المدارس الإسلامية وعددها خمس عشرة مدرسة ونهب المستعمر الكتب والمخطوطات (٨١) .

كما سقطت باماكو وفوتا جالون وغيرها وعندها لجأ المجاهد الشيخ أحمد إلى سكتو فرحب به هناك أبناء وأحفاد الشيخ عثمان دان فودي فشارك معهم في جهاد الإنجليز إلى أن توفي ١٣١٥ هـ - ١٨٩٨م (٨٢) .

ويرى الدكتور عمر أحمد سعيد أن الحاج عمر انطلق من المرحلة الثانية من كتابات الجهاديين ليقوم على أساسها مجتمع المرحلة الأولى بين قبائل الببار أو الكراتة الوثنية وهذا في نظرنا ما قاد إلى فشل الحاج عمر في إقامة دولة متماسكة (٨٣) .

ونجد أن جهاد الحاج عمر الفوتي كونه حركة إصلاح اجتماعية وسياسية عالمية استوحت فلسفتها من التعاليم السلفية واستهدفت بعثاً جديداً في التفكير الإسلامي الأصيل وأصررت على أن مثل هذا البعث ضرورة لا بد منها في القيام بأي إصلاح اجتماعي وسياسي واقتصادي ناجح في السودان الغربي، وهي بذلك أكثر طموحا وخاصة فيما يتعلق بالتوسع الإقليمي من حركات الجهاد السابقة بينما نجدها أقل استعدادا لمعالجة المشاكل السياسية والاقتصادية والإدارية في الأراضي الواسعة التي غزتها جيوشه في السودان الغربي (٨٤) .

الإشارات المصدرية :

١. أحمد الشكري ، جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال " في ندوة دولية بذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ عمر الفوتي تال ، معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط، ٢٠٠١م ، ص ٤٥ .
٢. أحمد محمد كاني "حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر " في بحوث الندوة العالمية للشيخ عثمان بن فودي ، الخرطوم ، ١٩٩٥م ، ص ١٦ .
٣. الحسن يرولي ، جهاد الحاج عمر ، في ندوة دولية ، الرباط ، م . س . ص ١١
٤. بهيجة الشاذلي ، مرجع سابق، ص ٧ .
٥. محمد أحمدلي ، مرجع سابق ، ص ٣١ - ٣٢ .
٦. الشريف ولد أحمد محمود، التجانية : رابطة رحم وجسر تواصل بين شعوب منطقة نهري السنغال والنيجر : في الإسلام والمقاومات والدولة في إفريقيا الغربية ، ندوة دولية، الرباط ٢٠٠٣م ، ص ٢٩ .
٧. أحمد الأزمي ، الحاج عمر الفوتي والمغرب ، ندوة دولية الرباط ، ٢٠٠١م ، مرجع سابق . ص ١٨٧ .
٨. نفس المرجع ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
٩. نفس المرجع ، ص ١٨٨
١٠. نفس المرجع .
١١. نفس المرجع ، ص ١٨٩
١٢. نفس المرجع
١٣. نفس المرجع
١٤. الهادي المبروك الدالي ، قبائل الفلاني (دراسة وثائقية) ص ١ ، الوكالة الليبية للترقيم الدولي، ٢٠٠٣م ، ص
١٥. عمر عبد الماجد ، حياة الحاج عمر الفوتي ، مجلة دراسات إفريقية ، العدد الأول، المركز الإسلامي الإفريقي ، أبريل ١٩٨٥م ، ص ١٤٢ .

١٦. خدوفة إبراهيم فرج: الإسلام في بلاد النوكولور في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر، في المجلد الخامس، المؤتمر الدولي، الإسلام في إفريقيا، الخرطوم ٢٠٠٦م. ص ٢٨٢.
١٧. عبدالله عبدالرازق إبراهيم، الإسلام وتحدي الاستعمار الأوربي في إفريقيا، ط (٢)، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ١٩٩٧م، ص ٨١.
١٨. عمر عبدالماجد، مرجع سابق، ص ١٤٤.
١٩. نفس المرجع
٢٠. عمر عبدالماجد، مرجع سابق. ص ١٤٤ - ١٤٥.
٢١. عمر بن سعيد الفتوي، الطوري الكدوي، رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرحيم بهامش جواهر المعاني، ج (١)، الطبعة الأولى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٠هـ - ١٨٦٣م، ص ١٨٤.
٢٢. نفس المرجع
٢٣. أحمد الأرمي: الطريقة التجانية وأدوارها التربوية والروحية والفكرية والسياسية في المغرب والسودان الغربي بين الماضي والحاضر" في: الطرق الصوفية في إفريقيا، ندوة دولية، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠٠٤م، ص ١٨.
٢٤. نفس المرجع.
٢٥. خديم محمد سعيد أمباكي، التصوف والطرق الصوفية في السنغال، سلسلة بحوث ودراسات (١٤) معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط ٢٠٠٢م، ص ٥٧.
٢٦. عبد القادر محمد سيلا، المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة (١٢)، ط (١)، قطر، شوال ١٤٠٦هـ - ص ٧٧.
٢٧. نفس المرجع. ص ٧٧ - ٧٨.
٢٨. نفس المرجع، ص ٧٨.
٢٩. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج (٦). ط (٣)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٢١٥.
٣٠. عمر عبدالماجد، مرجع سابق، ص ١٤٥.
٣١. بهيجة الشاذلي، مرجع سابق، ص ١٣ - ١٤.

٣٢. نفس المرجع ، ص ١٤ - ١٥ .
٣٣. خدوفة ، مرجع سابق ، ص ٢٨٣ .
٣٤. عمر جاه : تقويم جديد لجهاد الحاج عمر الفوتي وعلاقته بجهاد الشيخ عثمان بن فودي ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، العدد (٦) . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ص ٢٩٢
٣٥. عمر عبدالماجد ، مرجع سابق ، ص ١٤٥ .
٣٦. بهيجة الشاذلي ، مرجع سابق ، ص ١٥-١٦ .
٣٧. بهيجة الشاذلي ، دور علماء الإصلاح الأفارقة في إثراء الثقافة الإسلامية (قرن ١٩) نموذج عثمان بن فودي ، في مج (٥) الإسلام في إفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩
٣٨. نفس المرجع ، ص ٣٠٩
٣٩. أحمد محمد كاني ، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ط (١) ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٧م ، ص ١١٥ .
٤٠. بهيجة ، دور زعماء الإصلاح ، مرجع سابق ، ص ٣٠٩ .
٤١. عمر عبدالماجد ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ .
٤٢. Omar Jan , (An Analysis of the political Ideals of Al-Hajj Umar Al Futu: ١٧٩٤ - ١٨٦٤ A. مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (مقال مصور من دوريات جامعة إفريقيا العالمية) .
٤٣. Ibid
٤٤. Ibid P.٧
٤٥. عمر عبدالماجد ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ - ١٤٧
٤٦. نفس المرجع ، ص ١٥٠ - ١٥١
٤٧. الفاتح النور ، التجانية والمستقبل ، ط (١) دار كردفان للطباعة ، الأبيض ، ١٩٩٧ ، ص ٣١٩ .
٤٨. عبدالله عبدالرازق إبراهيم ، الحاج عمر التكروري فقيه من السودان الغربي ، مجلة الفيصل ، العدد (١٤٦) شعبان ١٤٠٦هـ - ابريل ١٩٨٩م ، ص ٤٨ .
٤٩. الشكري ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .
٥٠. نفس المرجع ، ص ٦٣
٥١. نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤

٥٢. نفس المرجع ، ص ٦٤ - ٦٥
٥٣. عبدالله عبدالرازق ، أحمدو لويو وحركته الإصلاحية في ماسينا ، في مؤتمر التواصل والتداخل في إفريقيا ج ، ١ الخرطوم ، جامعة إفريقيا العالمية ، يناير ٢٠٠٦ م ، ص ٨١
٥٤. نفس المرجع ، ص ٨١ ، ٨٢.
٥٥. إبراهيم عثمان انغويبا ، الحاج عمر تال الفوتي : خلافاته مع المصلحين في عهد أحمد بن أحمد بحث تخرج ، غير منشور ، لنيل شهادة (ميثريز) شعبة اللغة العربية ، كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، جامعة بمانكو ، جمهورية مالي ، ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ م ، ص ١٥-١٦
٥٦. عبدالله عبدالرازق ، الحاج عمر ، مرجع سابق ، ص ٤٨.
٥٧. عبدالقادر محمود ، الطائفة التجانية ، مجلة جامعة القاهرة ، بالخرطوم العدد الأول ١٩٧٠ ، ص ٨٥ - ٨٦.
٥٨. نفس المرجع ، ص ٨٥ - ٨٧.
٥٩. الأزمي ، ندوة دولية ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤.
٦٠. أحمد بن محمد الشنقيطي أبي العباس العلوي ، روض شمائل أول الحقيقة في التعريف بأكابر أهل الطريقة وعلق عليه في بعض المواضع الشيخ محمد الحافظ ، الحلقة رقم (٥) في مجلة طريق الحق ، العدد الخامس ، س (٢٣) جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ - يونيو ١٩٧٣ هـ ص ٣٣. وقد طبع هذا الكتاب كاملا في القاهرة علي نفقة الشيخ محمد رفعت التجاني ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
٦١. الأزمي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤.
٦٢. عمر جاه " تقويم جديد " م . س ، ص ٢٩٤.
٦٣. نفس المرجع ، ص ٢٩٥.
٦٤. نفس المرجع
٦٥. نفس المرجع ، ص ٢٩٦
٦٦. نفس المرجع
٦٧. عبدالقادر محمود ، مرجع سابق ، ص ٨٧
٦٨. نفس المرجع.

٦٩. عمر جاه ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧
٧٠. أبوبكر عثمان سي ، الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا ، مجلة طريق الحق ، العددان ٣ و ٤ السنة ٣٢ ، يناير وفبراير ١٩٨٢ ، الزاوية التجانية الكبرى بالقاهرة ، ص ١٤ .
٧١. Omar Jah , p. ٧-٢١ .
٧٢. Ibid
٧٣. Ibid
٧٤. عمر جاه ، مرجع سابق ، ص ٣٠١
٧٥. نفس المرجع ، ص ٣٠١ .
٧٦. حسن الصادق ، أضواء على الحاج عمر الفوتي من خلال المخطوطات العربية في ندوة دولية ٢٠٠١/م. س ، ص ٢٣٣ .
٧٧. غنمي عمرو سعيد ، الطريقة التجانية ودورها في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا ج ١١ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢م .
٧٨. الصادقي ، مرجع سابق .
٧٩. خالد صابر شريف ، دور مدينة فاس في نشر الطريقة التجانية في إفريقيا جنوب الصحراء ، سلسلة ندوات ومناظرات (٣) في فاس وإفريقيا ، ندوة دولية منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٢٣٧ .
٨٠. مهدي ساتي صالح ، مع الإسلام والثقافة العربية في السنغال ، إصدار رقم (١٢) شعبة البحوث والنشر المركز الإسلامي الإفريقية في الخرطوم ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص ٣٢ .
٨١. عبدالعزيز بن راشد العبيدي ، مركز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي ، دراسات إفريقية ع ٥ ، أكتوبر ١٩٨٩ م ، ص ٧٩ .
٨٢. مهدي ساتي ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .
٨٣. عمر أحمد سعيد ، دور حركات التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا ، دراسات إفريقية (٦) ١٩٩٠ ، ص ١٣١ .
٨٤. عمر جاه ، مرجع سابق ، ص ٣٠٢ .